عصب السلام

للأستاذ الياس يعقوب

لا تنقذ السلام إلاّ أعجوبة . وإلى أن تحدث الأعجوبة نظل رهن الخوف والقلق والجزع من سوء المصير ؛ نصل الحرب سرّاً ونتشدق بالسلام جهراً . وكلما تراكمت الأسلحة وتنوعت، نشعر بدنو الساعة التي تدور فيها رحى الموت والخراب .

السلام أمنية الانسان : إن كان في حرب حن اليه ، ولا يفارقه إلاّ موجع القلب باكياً، لأن الحرب إذا ما شبت تجعل النجاة أمراً عسيراً . فريح الموت والدمار تهب من كل صوب والمآسي والويلات تعود لتتكرر . وقد عجز الانسان عن الاستفادة من اختباراته وتجاربه لتشييد عالم جديد على أسس جديدة. لقد استطاع أن يتقن فن الحياة في زمن الحرب ، وينظم معيشته وانتاجه تنظيماً دقيقاً ، لكن عبقريته أصيبت بالشلل والعقم عندما واجهت مشاكل السلم ، وعجزت عن أن تجد الحلول الصحيحة لها فصح في السلام ما قيل في الزوج، إن الاحتفاظ بالزوج أصعب من الحصول عليه . فالدول التي أحرزت النصر في الحرب فشلت في توطيد السلم العالمي ، ولم يتح لها أن تتمتع بهدنة تزيد عن متوسط عمر الانسان، وكل فترة سلام تستمر ما دامت الدول عاجزة عن الشروع باستئناف القتال وقبل أن تندمل الجراح التي سببتها الحرب الأخيرة ترى البشرية نفسها مسوقة لمواجهة نزاع عالمي جديد . واننا نعلق على هذه الجولة أضخم الآمال وأعذبها، لأنها تستطيع في عرفنا أن تستأصل الشرور وتصفي أسباب النزاع ، فتكون بمثابة مطلع فجر جديد لمفاهيم جديدة .

في هذه الفترة العصيبة من حياة العالم، التي تماثل فترة ما قبل العاصفة ، وما يسبقها من نذر ، غيوم وبروق ورعود ، تتردد أصداء مؤتمر للسلم يعقد هنا ، ونداء للسلم يصدر من هناك ، وهذا الضرب من الدعاية لا يرمي إلى توطيد أركان السلم الحقيقي ، بل إن هو إلا وسيلة خفية ماكرة تتوسل بها الدول الكبيرة قصد السيطرة على الشعوب

الضعيفة ، بعد أن تكون خسرت أعصابها على وقع هذا الغناء الحلو الحنون ، وصمت العقول بما بثّ من روح التواكل والتخاذل والانهزام . وإذا ما نزعت بعض الأمم للسلام ونامت عن هدهدته ، دون سواها ، آمنت بفلسفة الهزيمة والضعف ، وآثرت الاستسلام والاستجداء على الصراع ، فاستشرى بها داء الضعف ، وأضحت لقمة سائغة تلتهمها الشعوب التي ظلت على مبدأ العنف والقوة . إن القوي يبشر بالسلام جهراً ، ويندد بالحرب والذين يدعون لها ، بينما يعد العدة للحرب سراً ، ويعمل لها مادياً ومعنوياً . وإنما يفعل ذلك ليبرر عدوانه ، وللإبقاء على ما في قبضته من أرض ذات خيرات كثيرة مترعة. ومن الطبيعي أن يطلب المشتكي الأمن والهدوء كي ينعم ويتلذذ بما جنت أطماعه . إن الدول القوية الداعية للسلام آفة السلام والصفو والطمأنينة ، وربيبة الظلم والعدوان والاستعمار . وليس ثمة سبيل لتوطيد السلم ما لم تتم هذه الدول الدليل الصحيح ، وتأخذ على نفسها العهد الأكيد ، إنها لا تتصدى الحياة على الشعوب المجاورة التي تقل عنها قوة وتختلف عنها أنظمة . وما دام ديدن هذه الدول القوية التوسل بالإيديلوجية لاخفاء المطامع والنوايا السيئة، فان مشكلة السلام في العالم تظل قائمة دون أن تجد حلاً ممكناً .

انا مع رغبتنا الشديدة بالسلام ، وتعلقنا الغريزي بالحياة ، وكرهنا للآلام والمتاعب والدمار ، لم نستطع بلوغ محجة السلام . فحياة البشر كائنة بين مد الحرب وجزرها . وعن فيما ننشيء من حضارات ، وننجب من نسل ، ثم تشب الحرب فتأتي على كل شيء ، لا تختلف عن الأطفال الذين يلهون على شاطيء البحر : بناؤهم لهو ، وهدمهم لهو . وهم ربما يشيدون أو يهدمون لا أوجاع ولا دماء ولا حسرة . اننا لم نحقق السلام لأننا أخطأنا الصراط المستقيم المؤدي إليه ، وأخطأنا في اختيار الحلول التي عولنا عليها لحل مشكلة السلام ، ولم نغص الى الأعماق لكي نهتدي إلى علة الحروب التي هي أم لكل حرب شبت .

نحن في خلاف حول النظرة إلى السلام في العالم . وهذا الخلاف يرد الى الفروق في الايديلوجية وما ينشأ عنها من تقدير القيم وتصور الحياة المثلى . وتتأثر النظرة كذلك بحكم الموقع الجغرافي ، كأن تكون الحدود طبيعية منيعة ، أو اتفاقية طليقة ، أو تقع الدولة وراء بحار شاسعة تحدق بها من جميع الجهات فتحصن الاحتكاك المستمر والرقابة الدائمة والمنازعات على الحدود . فالسلام في نظر الدول التي أصبحت أرضها ميداناً للحروب ، وشهدت مراراً تبدل الحدود الجغرافية ، لا يكون ممكناً ودائماً إلا في العودة الى الحدود التقليدية أو الطبيعية دون أن يلم أعداء الامة للأمة بحقها ، كما يقول « أنطون سعادة ».

أما الوضع الراهن فانه لا يصلح اتخاذه أساساً لحل مشكلة السلم، لأن كل دولة قوية منتصرة تتشبث بوضعها الراهن وتأبى التقهقر خطوة واحدة وما لم تتفق الارادات وتتماثل الاغراض فلا سبيل أبداً لاقرار السلام فلنسأل الآن كيف تتوطد أركان السلام ؟ .

بعد أن خرج العالم من الحرب العالمية الاولى خيل لأصحاب الحل والعقد أن التسلح يقود حتماً إلى الحرب . فلصيانة السلام ينبغي الحد من نزع السلاح ، أو تخفيفه ، أو تحريم بعض أنواعه ، والعمل على مراقبة المنافسة في التسليح وصنع معدات الحرب . وقد فاتهم ان الانسان عرف الحرب ومارسها وهو لا يعرف سلاحاً غير العصا . فالقضاء على تقدم السلاح الآلي الفتاك لا يبعد شبح الحرب ويدني السلام . لأن الأمبراطوريات القديمة التي قامت على الفتح والسيطرة ، لم تعرف وسيلة للتنقل غير الدابة . إن العدوان لا يكمن في السلاح ، قل أو كثر ، بل في اليد التي تحرك السلاح ، والفكر الذي يوجه اليد ويديرها . وكأن الحرب الاخيرة قلبت المفاهيم وتمخضت عن مقومات جديدة للسلم . إذ بات الناس يؤمنون أن القوة دعامة السلام وسياجه ولهذا طفقت الدول تتسابق الى التسلح والسيطرة على المواقع ذات الأهمية الستراتيجية في البر والبحر كي تفاجيء ولا تفاجأ وتضرب دون أن تضرب . وإلى جانب هذا التهيؤ للحرب تعمد إلى عقد المحالفات وتكوين أكبر كتلة تقف في وقف الكتلة المناوئة . ولتحقيق الغايات المشتركة لا تنتج المعامل إلا ما يفيد في الحرب ، وتبقى الجيوش مرابطة في الثكنات أو على التخوم . إن رجال السياسة يعتقدون بإصرار ان السلم يولد في الميدان ، ومن الحرب ينفجر السلام . والسلام الثابت الدائم هو ما ترسخ أسسه قبل أن تقف رحى الحرب ، وما ينبثق من صميم الحرب وتفاهره بحور من الدماء والدموع ولاستنباط هذا السلم ينبغي أن تكون الهزيمة التي يمنى بها العدو تامة ساحقة ، في جميع الميادين ، وتصاب جميع قواته بالشلل والابادة وتدمر كل مرافقه ، ويتجرع كأس الذل مترعة . أما بلاده فيجب أن تمزق شر ممزق ، وأرضه تقسم ويقترع عليها للتوزيع ، وينبغي أن يخضع للاحتلال الأجنبي كي تهدد العبودية وتتحطم كبرياؤه .

إني لا أدري كيف نستقطر الترياق من ذلك الافعى ، ونستنبت القمح من الزؤان ، ونزرع نفساً فنحصد محبة وثقة وأمناً ولا أدري كيف نرسل الارهاق والاذلال ثم نرجو الخصوم ان تدرس تعشق السلام والتسامح والتفاهم . فما دام قلب المنتصر يغلي غلاً ونفسه حقداً فلا عجب إذا ما رأينا الحرب تأتي إثر الحرب كالموجة إثر الموجة وهكذا تلقي كل حرب بذوراً لغيرها . ونحن لا نختلف عمن يحاول إطفاء الحريق بوساطة المواد المشتعلة .

إن المنافسة في التسلح لا تقف عند حد ولا تبلغ درجة الاكتفاء . لأن الدولة مهما

تصنع وتكدس تبقى في شك من قوتهما ، وتظن أن عدوتهما تفوقها في الأسلحة كماً ونوعاً . ولما كانت الأسلحة متنوعة وميادين الحروب مختلفة فلا سبيل للمقارنة بين القوى وتعادلها . وقد لا تتركز القوة في كمية الأسلحة فقط بل تستند الى المواد المحترقة التي هي بمثابة دم لها تبعث فيها الحركة والنشاط . زد إلى ذلك عوامل طبيعية من تضاريس وأنهار وبحار وأحوال اقليمية خاصة تعزز الدفاع أو تقلل من شأنه . فالخوف من اعتداء لم يقع ، والقلق من جراء تكديس المعدات ، وجو الحرب المفتعل الخانق ، ترهق الدول المعنية ، وتستنزف أموالها ، وتخلق حالة من التوتر بسبب ما يبدو من استعداد للحرب .

ويقول آخرون إن السلام لا يتوطد ما دام البشر يتكاثرون باطراد . لأن التضخم في السكان يؤدي الى التنازع على البقاء بين الأفراد والأمم . فلكي نحصل على الاستقرار المنشود ينبغي تحديد النسل . قد يكون هذا صحيحاً فيما لو كانت حاصلات العالم الغذائية تصاب دائماً بالقحط مما يسبب إقلالاً بالغلال ، وفيما لو كانت موارده المعدنية والنباتية لا تتناسب مع حاجته . ليس الاقلال علة القلق السائد ، بل إن العلة كامنة في الجهل وأساليب توزيع الخيرات على الناس توزيعاً عادلاً ، والجشع والاستغلال وقلة المساواة في مبلغ الاستفادة من خيرات الأرض ، وانتشار البطالة ، وما ينشأ من البطالة وعدم المساواة من استياء وتأفف واختلال .

في العصر الحاضر تقوم الحياة السياسية على أساس قومي . وهذا النظام الذي تمخض عنه القرن التاسع عشر قام على أنقاض القرون الوسطى وما ساد فيها من إقطاع ، ونظام طبقات ، والحكم بموجب الحق الالهي ... فقضى على النظام الاقطاعي ، ونقلت السلطة الى الشعب ، وحلت المساواة أمام القانون مكان الامتيازات ونظام الطبقات ، وكفل حرية الفرد في المجتمع ، وصان حقوقه من عبث العابثين ، وأقام التوازن بين حقوق الأفراد وواجباتهم . والقومية تقضي بتقسيم العالم إلى جماعات مستقلة بسبب تمايزها واختلافها من وجوه كثيرة . فهي في ذلك لا تتنافى مع الطبع الذي فطر عليه الناس وهو أن يحيوا جماعات ذات مقومات وخصائص ونفسية مميزة اكتسبتها بحكم تفاعلها المستمر مع البيئة في مجرى الزمان . وإن ظهور النزعة أدى إلى تفسخ أمبراطوريات وظهور دول جديدة . وقد ازدادت الكيانات القومية وترسخت قواعدها وانتشرت الصفة الحقوقية بعد الحرب الكبرى الأولى بسبب طغيان الوجدان القومي وظهور مبدأ تقرير المصير . ولما كان يستحيل علينا — عملياً — أن نحدث مساواة تامة بين مختلف هذه الدول ، فلا بد أن تظل هناك دول ضعيفة . حسب مفهوم القوة في هذا العصر ، يتجلى ضعفها في قلة

مساحتها ، أو ضآلة عدد سكانها ، أو قلة موارد الثروة فيها ، تقوم إلى جانب دول قوية. وإذ في ضعف الأولى ما يغري الثانية بالاعتداء عليها لتضمن لنفسها مجالاً حيوياً ، كأن تتخذها سوقاً لسلعها أو مصدراً للمواد الخام التي تفتقر اليها صناعتها . وفي ازدياد هذه الوحدات السياسية تزداد الحواجز ، ويكثر التوتر ، وتتأزم العلاقات بين الدول دائماً .

إلى جانب هذا المظهر السياسي تقوم الحياة الاقتصادية على أساس عالمي . فالتطور الصناعي يختنق إذ وقف عند التخوم السياسية المتعارف عليها . إنه يتخطاها إلى سائر أنحاء الدنيا . وان الحاجة إلى مواد خام وإلى أسواق للاستهلاك تزداد بازدياد التطور الذي يطرأ على المصانع الآلية .

إن نظاماً حياً دائم التطور لايمكن أن يتلاءم مع نظام جامد محدود ، ولا بد من أن يحدث اهتزاز يؤدي إلى توتر العلاقات الدولية أو انفصامها . لأن الجندي كثيراً ما يتبع أثر التاجر ، أو أن المتمول المغامر يجر الدولة أو يزين لها الخروج خارج نطاق الحدود السياسية . وفي ذلك ما يحمل الدول على الاستجابة لأنها أكثر ما تكون بعداً عن الاكتفاء الذاتي من الوجهة الاقتصادية .

ليس المسؤول عن الاضطراب العالمي النظام السياسي — الاجتماعي الذي لم يتطور ليصبح عالمياً كالحركة الصناعية وآثارها الاقتصادية . بل إن المسؤولية العظمى تقع على كاهل الاقتصاد الحديث الذي يتصف بالجشع المادي في مظهريه الشيوعي والرأسمالي ، وكلاهما يتطلعان الى الاستعمار والاستغلال وإن اختلفت الوسائل والاعذار . إن الاقتصاد الحديث لا يخضع لمقاييس القيم الأخلاقية أو لقانون خلقي إنه لا يتحسس إلا بالسوق التي تؤمن الربح ، ولا تعرف مبدأ غير القيم المالية . وكلا الاقتصادين لا يرمي إلى انتاج أفضل السلع بأفضل الأسعار ، ولا يقوم على مبدأ اجتماعي يرمي الى توفير الرفاهية وتأمين الحياة المثلى . وبهذه النظرة المادية الفاسدة تلجأ الدول مسرعة إلى بسط السيطرة على المجتمعات الانسانية الضعيفة واخضاعها لمآربها وامتصاص خيراتها . وان هذه الدول الاستعمارية لا تساعد على توطيد السلم وتماسك شعوب العالم وتحابها ، فضلاً عن أنها تؤخر ركب الحياة في الأمم الضعيفة وتحد نشاطها وإمكانياتها بحكم طابع الاستبداد .

إن التقدم البشري وزيادة المواصلات ورقيها جملة ، عوامل أبرزت لنا صورة جديدة تتعاون على حل أزمات العالم في مجتمع جديد أعضاؤه الدول القومية . وكما أن الدول القومية منذ نشأتها حتى الآن لم تفكر بازالة الوحدات الادارية في الوجود ، ولم تأب

الاعتراف بميزات اقليمية خاصة ببعض المناطق ، وبعضها ذهب بعيداً في منح الحرية لهذه الوحدات الادارية في تصريف شؤونها الداخلية ، فليس من السهل أو من الخير التعامي عن واقع الأمم وتميزها والتفكير بالانتقاص من سيادتها . لابد من احترام السيادة القومية حتى تستمر في عملها على زيادة الرخاء العالمي والمساهمة في بناء الحضارات . لكن احترامنا لهذه السيادة لا يفرض علينا تحريرها من قيد أو ساطة عليا خوفاً من التصادم وسحق الأمم الصغيرة الضعيفة تحت عجلة الأمم القوية المعتدية .

ان تنظيم العالم على هـذا الأساس — القائي بالشعور القومي والتوازن التام بين دوله — يمكن أن يكون عاملاً فذاً في توطيد أركان السلام . لقد بذلت محاولتان لايجاد سلطة واحدة مسؤولة عن العالم أجمع : تمثلت المحاولة الاولى في عصبة الأمم والثانية في هيئة الأمم المتحدة . أما الاولى فقد فشلت في مهمتها الأساسية وهي صيانة السلم الدولي . أما الثانية فانها لا تزال قائمة وإن كانت أعمالها لا تبشر بخير عظيم، وان عوامل الضعف والموت صاحبتها منذ نشأتها .

ان إنشاء كلتا المؤسستين في أعقاب حربين عالميتين مهلكتين يعود إلى الفكرة القائلة إن المنازعات التي تقع بين الدول لا يمكن حلها على أساس قومي خوفاً من تحكم القوي بالضعيف الذي لا يقوى على مجابهته وان كان مسلوب الحق . ولهـذا يستحسن — دفعاً للأذى والغبن ، وخوفاً من امتداد الشرارة — فض كل نزاع عن طريق المفاوضات والتحكيم . وكانت الدول القومية تستمد سلطتها من الشعب ، وتكون قوية بنسبة ما يمنحها الشعب من ولاء وتحمس واندفاع في سبيل صيانتها . فان كل مؤسسة عالمية لا تتمتع كلتها فوق كل كلة بقدر القوة العسكرية التي تعتمد عليها ، بل بمقدار ما يمنحها أعضاؤها من ولاء ويظهرون من تأييد وثقة واستعداد لحل كل نزاع بالطرق السلمية . وإذا لم ننجح في تكوين المنظمة التي تعرق سلطتها سلطة كل دولة ، فقد كتب علينا أن نتحفز دائماً ، ونحتكم إلى القوة ، ونسود القهقرى قروناً ونخضع لشرعة الغاب . إن الأمم الضعيفة تجني كثيراً من الفوائد إذا ما عملت على احياء ودعم المنظمات الدولية لأنها أكثر عرضة للأخطار وأكثر ما تكون محط أنظار الدول القوية الطامعة . إنها في دخولها في محالفات كالاتفاقيات الاقليمية التي تضم عدة دول اتفقت مصالحها وأهدافها تخسر شيئاً من سيادتها وحريتها دون أن تبعد عنها شبح الحرب . بل ان مجرد انخراطها في هذه المحالفات يشير إلى مخاوفها .

إننا مع القائلين إن الحرب تهدد الحضارة ، وتزهق الأرواح ، وتنشر الخراب ، وتفقر

الطبيعة لكثرة ما تستنزف من مصادر القوة في زمن قصير ما استغرق تكوينه ملايين السنين. ومع ذلك فإنها تستهوي نفوس الكثيرين الذين يرون فيها من الفرص لتحقيق الأغراض أكثر مما يتوفر في زمن السلم. انها تعمل على انتقال الثروات التي تتضخم وتتكدس، وتكسر حدة الفوارق بما توفر للناس من أعمال تتضمن الكسب والنجاح وتنشر الرخاء. وعدا ذلك فإنها أمنية الشعوب المقهورة التي اغتصبت حقوقها ولم ينصفها السلم فتأمل استرداد هذه الحقوق عن طريق الحرب.

الحرب كرّنت لنفسها أهدافاً وحججاً ومثلاً تدافع عنها وتبشر بها. وسيظل السلم حلماً وسراباً بعيد المنازل ما لم نشده على أساس جديد ومتين. إن النظرات الاقتصادية الجزئية من رأسمالية وشيوعية لا يمكن أن تضمن لنا السلام لأنها مادية في أساسها. والقضايا الاقتصادية، رغم أهميتها، ليست كل شيء لأن الدوافع الى الحرب قد تكون معنوية كالروح العدائي الذي يثير الشعوب والحقد والخوف....

لابد لنا من بلوغ النفس البشرية وصقلها وتهذيبها. لقد جربنا وسائل عديدة لتنظيم السلم في العالم، ألما يئن لنا أن نجرب المحبة كترياق لعللنا؟ لنمط محبة من قلب محب. ان العالم يحن بشوق الى هذا الخبز أكثر مما يحن إلى الخبز الحقيقي. إن الرغيف يحفظ عليه رمقه لكنه لا يجنبه ويلات الحرب. انا قد نبذل بسخاء ما يعتبر ضرورة جسدية لكن نفوسنا تبقى منكمشة على أنانيتها وحقدها. أما النفوس الممتلئة محبة فإنها تسعد بالعطاء — أياً كان نوعه — وفي بذل كل شيء لاسعاد الغير دون ما نظر إلى نتيجة العطاء. المحبة إكسير يحوّل الصفات الخسيسة المترسبة في أعماق النفوس إلى مناقب سامية نقية. انها مفتاح القلوب والشعاع الذي ينير ظلماتها. ومتى قدر للقلوب أن تنفتح، قدر للناس أن يتفاهموا ويتحابوا. وبدون محبة يستحيل علينا أن نبلغ حالة من التعاون بين الامم، وتحقيق المساواة. ما اختل التوازن الاقتصادي، وحصل نزاع على خيرات الأرض الكثيرة، إلا لأن النفوس أشربت بغضاً وطمعاً. انها تبغي التهام كل شيء واق سادت أموال الغير وأصابهم ضيق وأذى. ليس السلام في تجنب الحرب والاقلال من التسلح، بل في الوصول إلى إزالة سوء التفاهم بالود والتصافي. ومتى زال سوء التفاهم انتفت الأسباب التي تقود الى الخلاف الداعي الحرب، انا بحاجة إلى نظرة جديدة لمعالجة أزمات العالم، تقدم دعائمها على المحبة الشاملة التي تستطيع وحدها، صيانة السلام.